العدد (1288) الاثنين (4) آب 2008
NO. (4) Mon . (1288)Aug

شخصيات في ذاكرة العراقيين

يوسف سلمان يوسف (فهد)

اول سياسي عراقي ينقل السياسة من الصالونات الى الناس

عاصر الرفيق الخالد يوسف سلمان يوسف ، فهد ، عدداً من المثقفين الماركسيين العراقيين ، لكنه تميز عنهم بنقل الفكر الماركسي من حديث المقاهي السياسية الى الطبقات الكادحة صاحبة المصلحة الحقيقية فيه . ان اختلاط فهد بالجماهير كواحد منهم وتعامله معهم بصدق وتواضع بعيدا عن التكلف والترفع ، جعله قائدا مبدعا ذا قدرة على تنظيم العمل الجماهيري وقيادته .

جاسم هداد

في فترة إقامة فهد في مدينة الناصرية استطاع ان يبني علاقات متميزة مع الكادحين، أهلته ليكون من قيادات الحزب الوطني العراقي في الناصرية (نائب رئيس الفرع)، والذي كان يتزعمه الشخصية الوطنية العراقية جعفر ابو التمن الذي آزر فهدا كثيرا ودافع عنه، لما لمسه فيه من إيمان عميق بقضيته الوطنية واخلاص وصدق لما يناضل من أجله . وعندما وصفت السلطات الحكومية وقتذاك في مدينة الناصرية نشاط فهد المتميز بأنه هدام ، قال ابو التمن انه : (بناء يحاول ان يبني مع الفلاحين والضعفاء حياة سعيدة للناس) .

يمكن اعتبار فهد اول السياسيين العراقيين الذي نقل السياسة لأبناء الكادحين والتي كانت تقتصر على النخبة، وأول من جعل الشيوعية محببة الى نفوس المواطنين، وذلك لأقتران اقواله بأعماله. وكونه القدوة الحسنة بسلوكه وتمتعه بخصال أتاحت له القبول عند من يختلط بهم ويتحدث معهم، أستوعب الماركسية بشكل مبدع واستحق بجدارة القول عنه انه : (اول واحسن من طبق في العراق المنهج الماركسي اللينيني) . الى جانب ذلك درس التاريخ العربي والاسلامي، واهتم بحفظ الامثلة الشعبية والحكايات الفولكلورية والشعر الشعبي .

واهتم بكل ماهو وطني وشعبي لإدراكه ان فنون الشعب تعبر بدقة عن اعمق احاسيس الشعب الكادح، كان فهد يجيد رواية الحكاية والنكتة الشعبية ويضرب المثل الدال الموجز. واستطاع توظيف ذلك في تعامله مع الناس وفي تقريب وتوضيح افكاره التي كان يطرحها سواء في عمله التنظيمي أو التثقيفي الحزبي أو في كتاباته أو في دروسه التي كان يقدمها في السجن .

عندما ارسله الحزب الى موسكو في نهاية عام ١٩٣٤ للدراسة في جامعة كادحي الشرق الشيوعية، كان خلال دراسته تلميذا يجيد فن الاصغاء، مواظبا على الدروس والاجتماعات، يستغل وقته جيدا في القراءة والكتابة بعيدا عن الثرثرة والصخب، حتى غدت الصورة الأكثر وضوحا في ذاكرة زوجته هي مشاهدتها له اما أن يدرس او يكتب، وكان يقضي الليالي ساهرا في محاولة التعلم، وبذلك استطاع ان ينهي دراسته بتفوق حيث انهاها بسنتين بدلا من ثلاث سنين .

خلال دراسته في موسكو تعرف على شريكة حياته، وبرغم قصر حياتهما الزوجيه ولكنها كانت حياة زوجية ناجحة سعيدة، حيث تركت اثرها على زوجته والتي ظلت تعيش على احلام السعادة التي غمرها فيها اثناء حياتهما المشتركة، وظلت تربطها بالعراق مشاعر عميقة من خلال رعايتها للشيوعيين العراقيين وكلماتها الطيبة المفعمة بالمحبة، وتلقفها لأخبار العراق .

كان برغم انشغاله بالدراسة وبهموم وطنه وحزبه، يساعد زوجته في عمل البيت ويبتكر وسائل عديدة لجعل العمل المنزلي ميكانيكيا لا يتطلب جهدا بدنيا، ويعلمها اللغة الانكليزية، غادر موسكو وزوجته حاملا ابنته، مضحيا بالسعادة التي عاشها مع زوجته، متلهفا للعودة الى وطنه، مسرعا لمواصلة النضال بوعي اعمق وتجربة اغزر . واودع لدى عدد من رفاقه الشيوعيين الموجودين في موسكو بعض رسائل تحمل تواريخ متفاوتة ومعنونة بأسم زوجته وطلب منهم ايداع هذه الرسائل في صندوق البريد في تاريخها المسجل عليها، ولم ينس ابدا عيد ميلاد زوجته، فيشتري لها هدية ويرسل لها رسالتين باللغة الروسية والانكليزية من باريس اثناء وجوده هناك، مهنئا اياها بعيد ميلادها، مبديا قلقه على صحتها، متمنيا ان تكون معه، معتذرا لها عن غيابه عنها . وعند عودته مرة ثانية الى موسكو عام ١٩٤٢ للمشاركة في أجتماع ممثلي الأحزاب الشيوعية وكان الغزو الهتلري قد اجتاح أراضي الاتحاد السوفيتي مقتربا من موسكو وصوت المدافع حطم زجاج البيت، فأخذ يصلح زجاج البيت بنفسه، مبديا تفاؤله بهزيمة النازية، وبرغم علاقته الحميمة مع زوجته لكنه لم يبح لها بمركزه الحزبي ولا بمهامه الحزبية .

عند عودته للوطن عام ١٩٣٨، وجد الحزب الشيوعي العراقي الوليد مهشما، مبتلياً بالفوضى التنظيمية، يسوده عدم الانضباط الحزبي، حيث افلحت السلطات الحكومية في اعتقال قادة الحزب ومعظم كوادره، وترك قسم منهم الحزب والعمل السياسي . أهتم فهد ببناء الحزب مجددا، حزب من طراز جديد، وفق الأسس اللينينية التي تعلمها والخبرة التي اكتسبها، واستطاع ان يبني حزبا شيوعيا، لا يعرف المهادنة ولا الموسمية، أصبح خلال فترة زمنية قصيرة حزبا جماهيريا يتصدر نضالات شعبنا، برغم شيوع الأمية والجهل والتخلف وقتذاك، وبرغم ان فترة قيادة فهد للحزب قصيرة نسبيا، لم تتجاوز عشر سنوات .

الا أنه رسخ أسسا وتقاليد وقيما ثورية متينة مكنت الحزب من الصمود بوجه اعتى الدكتاتوريات التي تعاقبت على حكم العراق، إذ شهد تاريخ الحزب ظروف قمع متواصلة منذ العهد الملكي المقبور مرورا بشباط الاسود الى دكتاتورية صدام .

يذكر الرفاق الذين عاصروا فهد تعامله معهم وجهوده من اجل تعليمهم ما تعلمه وسلوكه القدوة حيث كان المبادر دائما لتنفيذ ما يطلب من الرفاق، ويقرن دعوته التربوية بسلوكه اليومي مع الرفاق والمواطنين، يراعي الظروف الاجتماعية، حيث كان يؤكد على ان يتولى الشيوعي تنظيم عائلته و اقاربه في العمل الحزبي، ولا يجوز ان يتولى مسؤولية التنظيم الحزبي رجل غريب، خشية القاء القبض على اجتماع نسوي فيه رجل حاضر وحتى لا تعطى فرصة للتشهير بالشيوعية والشيوعيين، شهد له كثيرون بأنه شخصيا متمتعا بإخلاق لم تمنح أعدائه وخونة الحزب الفرصة للنيل منه .

كان يأخذ بيد الرفاق غير مبد لهم انه اكثر منهم معرفة فتراه يحدث (عبد تمر) من انه سوف يتعلم عندما رشحه لعضوية اللجنة المركزية واعتذر الأخير كونه لا يمتلك المؤهلات التي تؤهله لهذا المركز . وكان يحث الرفاق الآخرين ويشجعهم على الكتابة لصحافة الحزب.

مشيرا إليهم انهم بالممارسة سوف تتحسن كتاباتهم وانه بدأ بدايات بسيطة، ولم تكن كتاباته في بداياتها بالمستوى الجيد . لم يغب عن بال فهد الاهتمام بظروف رفاقه العائلية، فتراه وهو داخل اسوار سجن الكوت، يوصي التنظيم الحزبي بتأمين سكن لزوجة احد الرفاق، لأن الرفيق غير مرتاح لظروف سكن زوجته .

كان قريبا من الرفاق معايشا ظروفهم، ويأبى تركهم أيام المحن وساعات الشدة، رافضاً النجاة بنفسه دونهم، عند اشتداد حملة الاعتقالات عام ١٩٤٦، اقترح احد اعضاء اللجنة المركزية عليه مغادرة العراق والسفر الى ايران والبقاء في عبادان او المحمرة، خشية اعتقاله، فرفض ذلك مؤكدا انه ليس من الصحيح ترك الحزب بمثل هذه الظروف، كذلك رفض فهد ما طلبه منه رفاقه في سجن الكوت، بعدم السفر الى بغداد عندما تم استدعاؤه ورفيقاه صارم وحازم لأعادة محاكمتهم، طالبين منه الأعتصام في السجن مبدين استعدادهم للتضحية من اجله، فقال لهم : (لا، لا افعل هذا، فأنني ارى من العيب التحصن في سجن الحكومة لئلا يقال ان فهد خاف من الموت) .

ولم يقتصر اهتمامه على رفاقه فقط بل كان مهتماً بالفنانين والأدباء بشكل عام، حيث يذكر الفنان يحيى فائق الاثر الكبير الذي تركه فهد بعد لقائه معه وشرحه له بإسلوب بسيط وواضح دور المسرح في تعميق الوعي السياسي والطبقي لدى الجماهير ومساهمة المسرح في تغيير المجتمع وإزالة الظلم الأجتماعي والفوارق الطبقية. وعندما اشتكى الرسام رشاد حاتم في يوم من الأيام من ان جدران السجن حرمته من الرسم فقال له الرفيق فهد: (ادفع جدران السجن وتصور الناس والطبيعة) .

وفي رسالة له من السجن يوصي بالجواهري الكبير : (وثقوا صلتكم بالجواهري، وساعدوه بالمقالات وترجمة المواضيع المفيدة)، ويقدر جيدا إرتباط مزاج الشعراء بالوضع الثوري فعندما علق بعض الرفاق عن الجواهري انه لم يكتب شعرا جديدا للحركة الوطنية قال : (الجواهري اصنع له حدثاً فتراه بلبلا مغردا) .

في السجن اهتم فهد بالمناضلين وكرس جهوده للعناية بمعيشتهم وتثقيفهم سياسياً ومدرسياً، وباشرافه تحولت قاعات السجن الى صفوف مدرسة ثورية، كان حريصاً على ان لا يترك فراغاً في أوقات السجناء، كان بنفسه يتابع مأكل وملبس ومنام رفاقه، وشهد كثيرون بأنه يقضي الليل ساهراً بين الكتابة والقراءة وتفقد رفاقه، فيغطي من سقط عنه غطاؤه، ويوقظ طباخي شوربة الصباح والخبازين ثم يخلد الى النوم لبضع ساعات مع ساعات الفجر الأولى، ويبدأ البرنامج النهاري بمحاضرة في الأقتصاد السياسي ثم بعدها الفلسفة ولم يقتصر التثقيف على السياسة فقط بل تعداه الى محو الأمية ودروس في اللغة العربية والأنكليزية والأدب العربي، إضافة الى الرياضة، كان فهد يساهم ويتابع كل هذا، حتى مزاح السجناء لم يغب عن باله ففي كل اسبوع تقام حفلة للغناء والموسيقى والسمر. ورسخ فهد تقليد الأحتفال بالمناسبات الوطنية والأممية. وكرس جهوده على تربية الشيوعيين بالروح الجماعية، وحب التنظيم والانضباط، وحب التضحية ونكران الذات، وانتقل هذا التنظيم الى باقي السجون.

كان فهد كقائد، صارماً مع من يخرق الضبط الحزبي وحادا مع الثرثارين، وإذ يسمح في الهيئات الحزبية ويتحمل النقاش مع الرأي المخالف، المركزية الديمقراطيةعلى الطريقة الستالينية، لا يسمح بنشر الرأي المخالف في صحافة الحزب ، كان قاسيا في نعوته للذين يدعون الى حل الحزب الشيوعي، ولهذا السبب يلومه بعض المثقفين على انه فرط بهم، ويأخذون عليه مبدئيته المفرطه، وجديته حتى في حياته الشخصية وعلاقاته مع اصدقائه .

يصفه معاصروه : مربوع القامة، متين البنية، مقرح الجفنين قليلا، بسيط المظهر، انيقا. متواضعا بغير تكلف، خفيض الصوت يتكلم بأناة، قليل الكلام، ولكن عندما يتعلق الأمر بشرح موضوعة نظرية او توضيح شأن سياسي فأنه لا يبخل بالكلام، ويركز بدقة على الموضوع الذي يتكلم عنه، ويبلور جملته بصدق وبساطة، تلميذا ومعلما في ذات الوقت .

شخصية شعبية، وطنية، شجاعة، مقدامة، يتمتع بحس قراءة مستقبل الأحداث، وتحليل وفهم الظروف، ولديه إمكانية إقناع قوية وموهبة في تفسير الأمور بطريقة واضحة وبسيطة، صابرا طويل الأناة، هادئ الأعصاب، يمضي ساعات طويلة في لعب الشطرنج وهمه التدريب وليس الفوز.

جسد فهد في وصاياه التي تركها لرفاقه ما يؤمن به، والتي ستبقى منارا لحياة الشيوعيين العراقيين الخاصة والعامة، تلهمهم الصمود لمواصلة النضال وتكون سلاحاً ماضياً في تحدي ظروف الارهاب والظلامية والأحتلال .

فوصيته القائلة: (ايها الرفيق : صن لقب الرفيق واسم الشيوعي من كل شائبة) لهي جرس انذار يرن لكل من يحاول الأساءة لاسم الشيوعي، ويطالب في وصاياه رفاقه بحب الشعب والوطن، وعدم الأكتفاء بذلك بل يجب ان يكون الشيوعي في مقدمة المناضلين من اجل حرية الوطن وسعادة الشعب، ويؤكد مسألة اساسية ومهمة وهي الثقة بالشعب وعدم الارتكاز على العوامل الخارجية والارتهان لها في موضوعة تحرير الشعب .

ولكون الحزب الشيوعي هو حزب الطبقة العاملة فيصبح من الأساسي حب هذه الطبقة والنضال من اجل تحقيق اهدافها.و يدعو الى كره الفاشية ويؤكد ضرورة ان يكون هذا الكره فكراً وقلباً، ولأيمان الماركسية بحق الشعوب في تقرير مصيرها والمساواة بين البشر، يطلب فهد الدفاع عن مبدأ الأخوة بين الشعوب . ولكون الانتهازية داء يصيب الحركة النضالية بالوهن، لا بل يشل حركتها، حذر منها فهد وطالب بمحاربتها .

ولإيمان فهد بثورية الشيوعية، اعتبر ان الشيوعيين هم الورثة الحقيقيون لتراث شعبنا الثوري، وطلب المحافظة على تقاليد شعبنا الثورية التي هي الأساس لتراكم هذه النضالات وكون حزبنا الشيوعي لم يكن طارئا، بل املته ظروف ذاتية واستوجبت نشوءه. وبشأن نظرة الشيوعيين الى العلم والفن والادب والثقافة بصورة عامة، اكد فهد وجوب ان تكون نظرتهم تقدمية لها، والمتابع لتاريخ الحزب الشيوعي العراقي يستطيع ملاحظة ان اغلب المثقفين خرجوا من معطفه .

وكما سبقت الأشارة إليه ان فهد ربى رفاقه على نكران الذات والتضحية، يؤكد ضرورة وأهمية تحلي الشيوعيين بالصفات الحميدة التي تسهل مهمتهم في كسب وقيادة الجماهير التي هي السياج الحقيقي للحزب، وتقوية الصلات معها يجب ان يأتي من خلال مساعدتها ومن خلال الدفاع عن مصالحها، ثم يلتفت الى اهمية الضبط الحزبي، الذي بدونه يتحول الحزب الى ناد للنقاش .

لعمري ان وصايا الرفيق الخالد فهد لعبت دوراً مؤثراً ومهماً في مواصلة الحزب نضاله برغم اقسى ظروف الارهاب والقمع التي تعرض لها، وما نلحظه من الخسارة لجماهيرنا ورفاقنا فمن اسبابها عدم الأخذ بهذه الوصايا وضعف الأهتمام بها، وبمناسبة الذكرى الخامسة بعد المئة لميلاد الرفيق الخالد فهد، فنحن بأمس الحاجة الى العودة لهذه الوصايا والعمل بها .وصدق الرفيق الراحل زكي خيري حين قال :

(كان فهد مربياً للرجال، إنساناً وانسانياً من كل الأوجه بقدر ما كان ثورياً صارماً).

يوسف سلمان يوسف . فهد

جعفر ابو التمن يؤازر فهد ويدافع عنه

في رسالة من السجن يوصي فهد : (وثقوا صلتكم بالجواهري وساعدوه)

أول التشريعات التي ألغاها عبدالكريم قاسم

نظام دعاوى العشائر لسنة ١٩١٨

المحامي طارق حرب

من التشريعات التي لم تكن محل دراسة او تحليل سواء من رجال القانون او التاريخ او الاجتماع او السياسة نظام دعاوى العشائر المدنية والجزائية الذي اصدره القائد العسكري البريطاني H.D. FANSHOW الميجر جنرال والقائم بأعمال القائد العام للحملة العراقية نحو ما تم وصفه في آخر النظام. ولقد استمر تطبيق هذا النظام من ٢٧/٧/١٩١٨ حتى انهيار النظام الملكي في ١٤ تموز ١٩٥٨ حيث تم الغاؤه بالمرسوم الجمهوري رقم ٥٦ لسنة ١٩٥٨ المنشور في الجريدة الرسمية رقم ٣ في ٣/٨/١٩٥٨ وقد حل هذا النظام محل نظام المنازعات العشائرية الذي اصدرته القوات البريطانية والذي لم يستمر تطبيقه سوى عدة اشهر. وقد تم تعديل هذا النظام لمرتين اولاهما في وزارة ياسين باشا الهاشمي يوم ١٢/١٩٢٤/ ٢٨ حيث تم نقل السلطات المخولة للموظفين البريطانيين الى وزير الداخلية العراقية والمتصرفين (المحافظين) والقائممقامين، وثانيهما في وزارة رشيد عالي الكيلاني يوم ١/٦/١٩٣٣ حيث تم تقييد تطبيق النظام على العشائر وافرادها فقط. لقد توزع النظام بين (٦٢) مادة وفي سبعة ابواب.. اذ حدد النظام بان احكامه يتولى تطبيقها الموظفون البريطانيون وعلى العشائر التي جرت على حسم منازعتها بواسطة محكمين من اختياريها او شيوخها بدلا من المحاكم، وان المجلس الذي يفصل بالنزاع هو المجلس الذي يضم الشيوخ والمحكمين الذين يعينهم الموظف الانكليزي، واحكام النظام يتم تطبيقها حتى ولو كان في القانون ما يخالف احكامه وتستثنى من ذلك بيانات القائد الانكليزي.والموظف الانكليزي هو الذي يتولى احالة الدعاوى الى المجلس العشائري وذلك اذا وجد ان حسم الدعوى وفق العادات العشائرية اقرب الى رفع النزاع ورضا الطرفين مما لو تحسمها المحاكم نحو ما حدد النظام ذلك وللموظف الانكليزي حسب الدعوى من المحكمة حتى ولو قدمت اليها ومن ثم يتولى احالتها الى المجلس العشائري. واذا قرر هذا المجلس اصدار قرار في الدعوى فلهذا الموظف سلطة اعادة الدعوى الى المجلس مرة ثانية ليصدر فيها قرار آخر او يحيل الدعوى الى مجلس عشائري آخر او يلغي قرار المجلس اذا كانت الدعوى مدنية او يبرأ المتهم اذا كانت الدعوى جزائية او يصدر حكم جديد. وعلى وفق هذا فإن سلطة الموظف الانكليزي مطلقة في كل ما يصدره المجلس العشائري لابل تتجاوز سلطاته السلطات التمييزية المعروفة في النظام القضائي.

وللموظف الاجنبي (الحاكم السياسي) سلطة الحكم بالسجن مدة لا تزيد على (١٤) سنة والغرامة والجلد بدلا من الحبس او معه وهو الذي يحدد كيفية دفع الغرامة او يسقطها عن المكلف بدفعها. اذ قد يقرر ان الغرامة يتم دفعها من اقرباء المحكوم او من افراد عشيرته. واعطى النظام اهمية لقيام احد الخصوم بحلف اليمين خلافا للقاعدة القانونية التي تقرر(ان المتهم لا يحلف اليمين).

وقد اسهب النظام في التضييق على العشائر بالعقوبات الكثيرة اذ يجوز القبض على جميع افراد العشيرة اومصادرة اموالهم اومنعهم من الاتصال بالآخرين او فرض الغرامات عليهم اذا قامت العشائر بأعمال منافية للحكومة او حصل الاعتقاد (مجرد الاعتقاد) بأنهم اتفقوا على ارتكاب جريمة او لم يتخذوا مايلزم للبحث عن المجرمين وحيث ان بعض العشائر قد تعفى من دفع رسوم للحكومة كان قيام بعض تلك الحالات يعني إلغاء ذلك الامتياز ومنع النظام العشائري من بناء اي حصن او بناء استحكامات الا بموافقة الحاكم الانكليزي ويجوز هدم البناء اذا قام الاحتمال بان البناء يمكن استعماله للوقوف امام سلطة الحكومة وله نقل افراد العشيرة من منطقة الى اخرى. واجاز القانون تعيين حراس للقرى على ان يتم دفع رواتبهم من الضرائب اومبالغ تستوفى من اهالي القرية ويجوز فرض الغرامة على اية قرية اذا تقاعس اهلها عن الحراسة وللحاكم سلطة ابعاد (نفي) اي شخص من الاراضي التي يقيم فيها الى منطقة اخرى اذا كان يخشى منه الخطر او كان مطلوبا في قضية قتل. ومنح النظام الحاكم سلطة إلزام اي شخص بتقديم تعهد حسن السلوك وحفظ السلام او ان يلزمه بالمراجعة وتحديد محل اقامته وعدم تغييرها وعند عدم تقديم التعهد فإنه يودع السجن. وقد منع النظام استئناف القرارات والاحكام والاوامر الصادرة بموجب احكامه، ومنح من نفذ هذا النظام حصانة مطلقة بحيث لا تقبل الدعوى ضده. واذا كان ماورد سابقاً هو نظام وهو في الدرجة الدنيا من انواع التشريع فانه يوفر له سند دستوري اذ قررت المادة (٨٨) من الدستور الملكي لسنة ١٩٢٥ تأسيس محاكم او لجان خاصة لفصل قضايا العشائر الجزائية والمدنية بحسب عادات هذه العشائر ومنحت المادة (٤١) من قانون العقوبات البغدادي النافذ من سنة ١٩١٨ لغاية سنة ١٩٦٩ فقرة قانونية للقضايا التي تم الفصل فيها طبقا للعرف العشائري وتم فيها الفصل العشائري. وسلاما على من قال ان الشعب يتكون من قبائل وان القبيلة تتكون من عمائر وان العمارة تتكون من بطون وان البطن يتكون من افخاذ وان الفخذ يتكون من عشائر وان العشيرة تتكون من فصائل وان الفصيلة تتكون من اسر (بيوت).